

بسم الله الرحمن الرحيم

الأسماء الحسنى

(٧) المقدمات في الأسماء الحسنى المجلس الثامن

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:
فلا زال الحديث عن آثار الإيمان بأسماء الله وصفاته الحسنى.

سابعاً: تزكية النفوس:

هذا الدين يهدف إلى إصلاح الإنسان، وإنما يكون صلاحه بإقامة العباد على قاعدة العبودية الحقة، وعلى طريقها الذي شرعه الله -تبارك وتعالى-، وكان المفتاح لذلك والجادة التي يسلكها من أراد أن يصلح قلبه وحاله ونفسه هو النظر في آيات الله -عز وجل- التي تحدثنا عن المعبود -جل جلاله-، وأسمائه وصفاته، وتربط القلوب به، وبهذا تتجه القلوب والوجوه إلى الرب المالك المعبود -سبحانه وتعالى.

وقد كان الأصل والمحور الذي يدور حوله القرآن هو الحديث عن الله -عز وجل- وصفاته، وفعله في الكون. القرآن يتحدث مبيناً عظمة الله وجلاله، ويدعو الناس إلى الاستجابة إليه، والأخذ بما يأمرهم به، ويشرعه لهم، ومجانبة ومجافاة ما يوقعهم في مساخطه، وأسباب غضبه، وهكذا يبين لهم فعله بأهل طاعته، وفعله بأهل معصيته في الدنيا وفي الآخرة.

وهذا الحديث هو الذي يحرك النفوس، ويستثير الهمم، ويجعل العبد مشمراً في طاعة الله -عز وجل- سالكاً صراطه المستقيم، وبذلك تزول الأدناس والأرجاس التي تعوقه عن فعل الخير، والتعلقات في الأمور الدنية، التي تشغله عن التعلق بربه -جل جلاله-: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}** [الزمر: ٢٣].

فالعلم بأسماء الله وصفاته هو العاصم بإذن الله -عز وجل- لهذه النفوس عن الخطل والزلل والانحراف، وهو المقيل من العثرة، وهو الفاتح لباب الأمل، فبذلك تعرف النفوس أن ربها غفور رحيم تواب، يتوب على من تاب، وأناب، كما أنه يعينهم على الصبر.

وإذا تمكنت الأسماء والصفات من قلب العبد خلّصت قلبه من كل شائبة شركية، أو بدعية، وطهرت نفسه من كل دنس.

إن اسم الله -تبارك وتعالى- "الله" إذا تمكن من القلب طرد منه كل شرك وبدعة؛ لأن الله هو المألوه، أي: المعبود، فلا تتوجه النفوس إلى عبادة غيره، وإنما يكون تألُّها وتعبُّدها له وحده لا شريك له، وبهذا يكون العبد قريباً من ربه، مطيعاً له، ممتثالاً مستجيباً.

ثامناً: تحقيق السعادة:

فالعلم بالأسماء والصفات، والتعبد بها هو قطب السعادة، ورحى الفلاح والنجاح، من رام السعادة وابتغاها فليأخذ

نفسه بأسماء الله وصفاته، فيها الأُنس كله، والأمن كله، وما راحة القلب وسعادته إلا بها؛ لأنها تتعلق بمن طُبُّ القلوب بيديه، وسعادتها بالوصول إليه، وكمال انصباب القلب إليه، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة))**(^(١)).

وأعلى منازل الإحصاء هو التعبد، فهذا هو قطب السعادة، ومدار الفلاح والنجاح(^(٢)). وكان ابن القيم -رحمه الله- يقرر أن: "من تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه، ومن سار إليه بأسمائه الحسنی وصل إليه، ومن أحبه أحب أسماءه وصفاته، وكانت أثر شيء لديه، فحياة القلوب في معرفته ومحبته، وكمال الجوارح في التقرب إليه بطاعته، والقيام بخدمته، وكمال الألسنة بذكره، والثناء عليه بأوصاف مدحته"^(٣).

ماذا عسى أن تلهج به الألسنة أفضل من لهجها بالثناء على الله -عز وجل-؟ وبماذا يمكن أن تُعمر القلوب أعظم من تعظيم الله -عز وجل- ومحبته، والخوف منه ورجائه؟ فالقلب إذا لم يعرف ربه فإنه يستوحش، وتغمره الوحشة، ويظلم الصدر ويضيق ولو كانت الدنيا بأسرها بيديه، فإنه لا أنس لهذه القلوب إلا بأن تعرف الرب المعبود معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته. يقول ابن القيم -رحمه الله-: "فالسیر إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب، وفتح عجب، صاحبه قد سيقت له السعادة، وهو مستلقٍ على فراشه غير تعب، ولا مكود، ولا مشنت عن وطنه، ولا مشرد عن سكنه"^(٤).

والتعرف على الله بالأسماء والصفات هو من أعظم السبل الموصلة لله والمحبة له، والتعظيم لشأنه سبحانه، وهذه هي العبودية الحقّة التي قال عنها شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-: "من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية"^(٥).

فهذه القلوب لا يمكن أن تجد طعم الراحة، وتذوق السعادة إلا إذا عرفت المعبود معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته، وتعبدته بمقتضى ذلك، وعلى قدر هذه المعرفة والتعبد على قدر ما يحصل لنا من الانشراح، واللذة والسرور.

ولو كان الإنسان يعيش في مكان بعيد خالياً عن الناس، منقطعاً عنهم فإن سعادته لا يمكن أن تقدر، وراحة قلبه لا يمكن أن تنقطع بانقطاعه عن الناس.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشرط والتثنيا في الإقرار، والشروط التي يتعارفها الناس بينهم، وإذا قال: مائة إلا واحدة أو ثنتين (١٩٨/٣)، رقم: (٢٧٣٦)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٠٦٣/٤)، رقم: (٢٦٧٧).

(٢) بدائع الفوائد (١/١٦٤).

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ٢٨٦).

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتین (ص: ٢١٥).

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٢٩/١).

ولهذا كان أهل المعرفة بالله - عز وجل - يستروحون بالخلوة به - سبحانه وتعالى - عند مناجاته في صلاة الليل، أو صلاة النهار، أو قراءة القرآن.

وكان بعضهم يقول: "إني لأدخل في الليل فيهلوني، فينقضي، وما قضيت منه أربي"^(٦).

وكان الآخر يقول: "أهل الليل في ليلهم أعظم لذة من أهل اللهو في لهوهم"^(٧).

فأهل اللهو تنقبض قلوبهم، وتستوحش نفوسهم، ويجدون عسرة وألماً، بقدر ما في هذه القلوب من الأئس بغير الله، والاشتغال بحطام الدنيا.

فمن أراد أن يبتعد عن الآفات التي عصفت بالكثير من أهل الزمان من الاكتئاب، والحزن، والآلام التي تقع في النفوس والوحشة والظلمة التي تقع في الصدور، فعليه بالإقبال على الله - عز وجل -، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يدمن النظر في هذا الباب، وأن يلاحظ نفسه، وحركات هذه النفس، وعلى أي شيء تقبل، وما الذي تميل إليه، فيداوبها بهذه الأدوية النافعة حتى تستقيم على هذه الجادة.

تاسعاً: التلذذ بالعبادة:

وهذه من أعظم المنح الربانية، فالكثير من الناس يسمع عن هذه اللذة، ولا يعرف حقيقتها، ولم يجد طعمها، إنما حظه منها السماع فحسب.

وقد رأينا في الحج أناساً كان بعضهم يقول: كأني لم أسلم إلا اليوم، وسمعنا عدداً منهم، ونقل عن بعضهم أنه يقول: إنه يعيش في لذة، وسعادة، وانشراح، وفرحة غامرة لم يجدها طيلة حياته.

وكان بعضهم يقول: ينتهي الحج ويملاً قلبي الحزن على فراق هذه الأعمال والمشاعر التي وجدت قلبي فيها.

وبعضهم كان يرسل برسائل بعد الحج، ولعل بعضهم يحضر معنا الآن يذكر مثل هذه المشاعر، بعضهم يذكر حزنه بعد الحج، وبعد فراق تلك الأعمال والمشاعر، مع أنه يعيش في خيمة، وليس له من الأرض إلا ما يكون من العارية للمستعير، على قدر ما ينام عليه، ومع ذلك يجد هذه اللذة والفرحة.

فليست اللذة بالقصور، وسعة الدور، وليست اللذة بكثرة الطعام، فهو يقف في طابور إذا أراد أن يأكل، ولربما وقف في طابور إذا أراد - أعزكم الله - الخلاء، وينام على مكان صغير، لا يستطيع أن ينقلب يمناً ويسرة؛ لأن الناس لم يتركوا شبراً حوله من أجل أن يتقلب فيه، ولكن قد وجد هؤلاء اللذة في طاعة الله - عز وجل -.

وهؤلاء لربما لم يعرفوا ذلك قبل حجهم، ولكن الكثيرين ممن عرفوا الله - عز وجل - يجدون ذلك في ليلهم ونهارهم طيلة العام، في صلاتهم، في صيامهم، وفي قراءتهم، وفي دعائهم، وفي تقلباتهم.

يستشعر أن الله - عز وجل - يراه، وأنه يراقبه، وأنه يرى عمله، وأنه يجازيه، وأن الله يحب عابديه، ومن ينيب إليه، ومن يقبل عليه، فيستشعر هذه الأمور جميعاً.

فمن وجد هذه اللذة صارت العبادة هي راحة نفسه، وطرب قلبه، فيكون لسان حاله: أرحنا بالعبادة يا بلال، كما

(٦) صفة الصفوة (١/٣٨٠).

(٧) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٤٥).

كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: **(قم يا بلال فأرحنا بالصلاة)**^(٨).

فتكون الصلاة لما فيها من القرب لله -عز وجل- والمناجاة له والتلذذ بكلامه والتذلل له، والتعبد بأسمائه قرة العين، وسلوة الفؤاد، ولذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: **(وجعلت قرة عيني في الصلاة)**^(٩). وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن اللذة والفرحة والسرور، وطيب الوقت، والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفة الله -سبحانه وتعالى-، وتوحيده، والإيمان به، وانفتاح الحقائق الإيمانية، والمعارف الربانية، والمعارف القرآنية.

كما قال أبو سليمان الداراني: "إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً، فأقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب"^(١٠).

لذة غامرة، انشراح، هؤلاء قد تكون أبدانهم تعاني الأمراض والأسقام، وأحوالهم تنقلب في الفقر والجوع، ومع ذلك يجدون هذه الراحة والسرور.

وآخرون يعيشون في بحبوحة من الدنيا، ومع ذلك قلوبهم مظلمة، لا يفتأ الواحد منهم يشتكي من ضيق الصدر والحزن، وما قد ينتابه من نوبات البكاء التي قد لا يعرف لها سبباً.

المقصود: أن الإنسان إذا حصل هذه اللذة خفت عليه التكاليف، وقد تزول عنه المشقات وهو يزول العبادات الشاقة، فتكون برداً وسلاماً على قلبه، فهو يشتغل بشيء فيه رضا المحبوب -سبحانه وتعالى-، فيقبل على ذلك بانشراح وفرح، فينسيه ذلك التعب كله.

ومن أعظم ما تحصل به هذه اللذة هو النظر في أسماء الله وصفاته، وأن نتعبد الله -عز وجل- بها، وأن نستحضر ذلك في كل عمل نزاوله، وفي كل عبادة نتعبد بها، فإذا أعطى العبد القليل من الصدقة يتذكر أن ربه شكور، يجزي الجزء الكبير على العمل القليل، وأن الله لا يضيع عمله، فيكون ذلك سبباً لمزيد من الإقبال، والتلذذ بهذه الصدقة، والعمل الصالح الذي يعمله، فيجد حلاوة في قلبه لا يمكن أن توصف.

وهكذا من صلى، وتذكر حينما قام لله -عز وجل- بين يديه صافئاً قدميه، تذكر قيوميته، وأن الله قائم بذاته، وأن عباده لا يقومون إلا به -تبارك وتعالى.

فإذا كبر ورفع يديه استشعر أن الله أكبر من كل شيء، وشاهد كبرياء الله وعظمته وجلاله، وإذا قرأ دعاء الاستفتاح استشعر ما فيه من تنزيه المعبود عن كل نقص، وإذا استعاذ وبسمل التجأ بقلبه إلى الركن الركين، وتبرأ من كل حول، واعتصم بالله من عدوه، واستعان به لا بغيره، ثم إذا قرأ الفاتحة استشعر في أثناء ذلك ما فيها من استحقاق الله -عز وجل- لكل المحامد، استشعر ألوهيته، وربوبيته، ورحمته بخلقه وملكه لكل شيء، واستحضر أنه يناجي ربه، وأن ربه يجيبه على مناجاته.

(٨) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة (٢٩٦/٤)، رقم: (٤٩٨٦).

(٩) أخرجه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (٦١/٧)، رقم: (٣٩٤٠).

(١٠) البداية والنهاية (٢٨٠/١٠).

ثم تذكر عظمة الله وعلوه، وتذكر خضوعه، وتدللّه بين يدي ربه بركوعه وسجوده، وانكساره وتأمل ذلك وهو يقول: سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى، وإذا صنع ذلك في صلاته، كيف لا يصلي صلاة مودع؟ وكيف لا يتلذذ بصلاته وعبادته؟.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يذكر قريباً من هذا المعنى، وأن العبد يستحضر أنه مناج الله - تعالى - كأنه يراه، فإن المصلي إذا كان قائماً فإنما يناجي ربه، والإحسان: **((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))**(^{١١}).

ثم كلما ذاق العبد حلاوة الصلاة كان انجذابه إليها أوكد، وهذا يكون بحسب قوة الإيمان، والأسباب المقوية للإيمان كثيرة جداً، وهي معلومة.

يقول شيخ الإسلام: فهذا باب واسع، فإن ما في القلب من معرفة الله ومحبه، وخشيته، وإخلاص الدين له، وخوفه، ورجائه، والتصديق بأخباره، وغير ذلك مما يتباين الناس فيه ويتفاضلون تفاضلاً عظيماً، ويقوى ذلك كلما ازداد العبد تدبراً للقرآن، وفهماً ومعرفة بأسماء الله وصفاته وعظمته وتفقره إليه في عبادته، واشتغاله به، بحيث يجد اضطراره إلى أن يكون تعالى معبوده ومستغاثه أعظم من اضطراره إلى كل شيء سواه، كالأكل والشرب، فإنه لا صلاح له إلا بأن يكون الله هو معبوده الذي يطمئن إليه، ويأنس به، ويلتذذ بذكره، ويستريح به، ولا حصول لهذا إلا بإعانة الله - عز وجل (^{١٢}).

وما سبق من العبادة هي نماذج تدل على غيرها، وكل عبادة من العبادات تقدم عليها مستشعرين هذه المعاني، وقد امتلأ القلب بالحب للخالق العظيم -سبحانه وتعالى- فإنه لا بد أن نجد لذتها، وأن نأنس بها.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: **((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار))**(^{١٣}).

فهذه ثلاثة أمور توجد بها اللذة، فكما أن الإنسان يجد لذة حسية بذوق الطعام الذي يستلذه، فكذلك أيضاً يجد لذة أخرى إذا تعاطى أسبابها، وكل من زاول شيئاً، واستعان بالله - عز وجل - فإنه يحصله بإذن الله -تبارك وتعالى- ، ومن أكثر طرق الباب فإن ذلك مؤذن بأن يفتح له.

عاشراً: إذا عرف العبد هذه الأسماء والصفات سعى إلى الاتصاف والتحلي بها على ما يليق به:

ومن المعلوم أن المحب يحب أن يتصف بصفات محبوبه، كما أن المحبوب يحب أن يتحلى محبه بصفاته، فالله -تبارك وتعالى- له المثل الأعلى، ربنا -جل جلاله- كريم يحب الكرماء، رحيم يحب الرحماء، رفيق يحب

(١١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم

الساعة (١٩/١)، رقم: (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (٣٦/١)، رقم: (٨).

(١٢) مجموع الفتاوى (٦٠٦/٢٢).

(١٣) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١٢/١)، رقم: (١٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من

اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٦٦/١)، رقم: (٤٣).

الرفق، فإذا علم العبد ذلك سعى إلى التحلي بصفات الكرم والرحمة والرفق.

وهكذا في سائر الصفات التي يحب الله أن يتحلى بها العبد على ما يليق بذات العبد كما قدمنا.

وقد عرفنا من قبل أن الاتصاف بموجب أسماء الله تعالى مقيد بشرط، وهو: أن بعض أسماء الله -تبارك وتعالى- إنما تكون كاملاً في حقه فحسب، كالمتكبر، فإن الكبر لا يكون، ولا يصلح بحال من الأحوال للمخلوق، فمثل ذلك لا يطلب الاتصاف به، وإنما ما يكون صالحاً للعبد على ما يليق به، ويناسب مرتبته، فهذا القيد لا بد من مراعاته.

الحادي عشر: ما تثمره هذه الأسماء والصفات من ألوان العبوديات:

والمقصود بالأثر هو ثمرة العبادة التي يجدها العبد عندما يقوم بموجبها من العلم والمعرفة، كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: وذلك أن لكل صفة من صفات الله تعالى عبودية خاصة بها، فمتى ما تعلمها العبد، وأتى بموجبها من العمل، تحقق له مراده منها، وأثمرت له أنواعاً من العبودية الظاهرة والباطنة، بحسب معرفته وعلمه^(١٤).

فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية، فاسم الخالق، وصفة الخلق اقتضت لآثارها، فوجد هذا الخلق، فهكذا تقتضي أيضاً هذه الأسماء والصفات آثاراً من جهة العبودية لله -تبارك وتعالى-، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي تقع على القلب واللسان والجوارح.

واليك بعض النماذج من هذه العبوديات، فمن ذلك:

أولاً: الدعاء.

فمن تأمل شيئاً من أسماء الله -عز وجل- وصفاته فإنها ولا بد ستقوده إلى أن يتضرع إلى الله بالدعاء، ويبتهل إليه بالرجاء.

من تأمل قربه -تبارك وتعالى- من عبده المؤمن، وأن الله تعالى هو القريب المجيب، والبر الرحيم، والمحسن الكريم، فإن ذلك سيفتح له باب الرجاء، وإحسان الظن بالله، وسيدفعه إلى الاجتهاد في الدعاء، والتقرب إلى الله به.

بل من تأمل وتعبد بالأسماء والصفات فإنه لا يقتصر على مجرد الدعاء، بل سيفيض عليه ذلك الأمر حضور القلب، وجمعيته بكليته على الله تعالى، فيرفع يديه ملحاً على الله بالدعاء، والسؤال، والطلب والرجاء.

وإنما كان الدعاء من أجل ثمرات العلم بالأسماء والصفات، وكان هو سلاح المؤمن، وميدان العارف، ونجوى المحب، وسلم الطالب، وقرّة عين المشتاق، وملجأ المظلوم؛ لما فيه من المعاني الإلهية العظيمة.

ولهذا ذكر ابن عقيل الحنبلي -رحمه الله- من هذه المعاني في الدعاء: أن الذي لا يؤمن بوجود الله -عز وجل- فإنه لا يدعوه.

(١٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/٩٠).

وكذلك إنما يلجأ إلى الدعاء من يوقن أن الله هو الغني، فالفقير لا يُطلب.
ولا يمكن أن يدعو إلا من يعتقد أن ربه هو السميع.

ولا بد من إيقانه بأن الله كريم، فإن البخيل لا يعطي، ولا يُطلب.

ويؤمن برحمته - سبحانه وتعالى-، ففي ضمن الدعاء لا بد أن توجد مثل هذه الأمور مجتمعة، أن الله رحيم، فهذه الرحمة لها آثارها، فيرحم عباده بذلك، فينزل عليهم الغيث، ويرفع ما بهم من ضر، ويدر عليهم الأرزاق، ويعطيهم سؤلهم، وينجيهم من المخاوف والمكاره^(١٥).

ثانياً: التوكل على الله -تبارك وتعالى.

فيعتمد القلب على ربه -جل جلاله-، ويفوض أمره إليه، فالتوكل من أعظم العبادات تعلقاً بالأسماء والصفات، وذلك أن مبناه على أصلين:

الأول: علم القلب، وهو يقينه بعلم الله وكفايته، وكمال قيامه بشأن خلقه، فهو القيوم -سبحانه وتعالى-، الذي كفى عباده شئونهم، فبه يقومون، وله يصمدون.

والثاني: عمل القلب، وهو سكونه إلى العظيم، الفعال لما يريد، وطمأنينته إليه، وتفويض أمره إليه، ورضاه وتسليمه بتصرفه وفعله؛ إذ كل شيء يمضي ويكون فبحكمه وحكمته وقدره وعلمه، لا يندّ شيء في الأرض ولا في السماء عن قدرته، فله الحكم، وإليه يرجع الأمر كله.

فإذا عرف العبد هذا، ركن إلى الله -عز وجل- وفوض أمره إليه، وصار واثقاً بتدبيره وتصرفه، فهو عليماً حكيم، يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

وهكذا يصير العبد مستسلاً لله -عز وجل- راضياً بأقداره وأحكامه، إلى غير ذلك من المعاني، ولهذا يقول ابن القيم -رحمه الله-: "كلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى"^(١٦).

ويقول شيخه تقي الدين -رحمه الله-: لا يصح التوكل، ولا يتصور من فيلسوف، ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب -جل جلاله-، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.

فالذي لا يؤمن أصلاً بالصفات، أو لا يؤمن بالأسماء، أو يعتقد أنها مجرد أعلام جامدة، لا تدل على أوصاف الكمال، كيف يتوكل عليه؟، من لا يؤمن أن الله هو الغني والقدير، والقوي، وأن الله فعال لما يريد، وأن الله عليم رزاق، كيف يتوكل عليه؟.

المقصود: أن العبد إذا علم بتفرد الرب -تبارك وتعالى- بالضر، والنفع، والعطاء، والمنع، والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، فإن ذلك يثمر له عبادة التوكل على الله باطنياً، ويثمر له ذلك أيضاً لوازم التوكل، وثمراته ظاهراً.

(١٥) شرح الطحاوية، لابن أبي العز (٦٧٨/٢).

(١٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١٢٥/٢).

يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: "وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد، وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه، وحمايته لهم، ومعيته الخاصة لهم، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه والرضا به"^(١٧).

وقد ضرب في بعض كتبه لذلك مثلاً يبين فيه الآثار المترتبة على عبودية الله -تعالى- باسمي الأول والآخر، **{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ}** [الحديد: ٣].

يقول: فعبوديته باسمه "الأول" تقتضي التجرد عن مطالعة الأسباب، والوقوف أو الالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته -فالله قبل الأسباب-، وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد؛ إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وأي وسيلة كانت هناك إنما هو عدم محض، وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فمنه سبحانه الإعداد، ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده لم تكن بوسائل أخرى.

فالذي يعتمد على الدواء أو يعتمد على سيارته، أو مركبه أنه جيد وجديد وقوي، أن يوصله إلى مطلوبه، أو يعتمد على أمواله وأرصده، أو يعتمد على حذقه وذكائه ومهارته، كل هؤلاء إنما يركنون إلى أسباب خلقها الله -عز وجل- وأوجدوها، فهو مصرف الأمور، وخالق الأسباب والمسببات، فمن عرفه معرفة صحيحة ركن قلبه إليه.

يقول: من نزل اسمه "الأول" على هذا المعنى أوجب له فقراً خاصاً، وعبودية خاصة.

وذكر عبوديته باسمه "الآخر"، وأنها أيضاً تقتضي عدم ركونه، ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تنعدم لا محالة، فالله هو الآخر، **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}** [القصاص: ٨٨].

يقول: وتتقضي بالآخيرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها، فالتعلق بها تعلق بما ينعدم، وينقضي، ويتلاشى، ويزول، والتعلق بالآخر -سبحانه- تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق أن لا يزول، ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره ممن له آخر يفنى به، وكذا نظر العارف إليه بسبق الأولية، حيث كان قبل الأسباب كلها، فإذا جمع العبد بين الاسمين، وتعبد الله -عز وجل- بمقتضاهما لم يتعلق بشيء^(١٨).

هذا الإنسان قد يكون مسئولاً عنه في العمل، لربما يركن إليه، وأن علاقته به وثيقة، ثم ما يلبث هذا الإنسان أن يموت، أو يزول، أو يفارق هذا المحل، وإنما يكون الركون إلى الله -جل جلاله-، وذلك يوجب لنا الاضطرار إلى الله -تبارك وتعالى- ودوام الفقر إليه، دون كل شيء سواه، فالأمر كله إليه يرجع، فنعامله بمقتضى ذلك، فهو السابق بالإحسان، والعطاء، والفضل، فنثق به دون ما سواه.

ولهذا يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله- عند كلامه على هذا المعنى: "من ذا الذي شفع لك في الأزل، حيث لم تكن شيئاً مذكوراً حتى سماك باسم الإسلام، ووسمك بسمه الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في

(١٧) الفوائد لابن القيم (ص: ٧٠).

(١٨) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٩).

ذلك الغيب عمالات المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد، ثم وجّه وجهة قلبك إليه سبحانه دون ما سواه؟^(١٩).

قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، أين كنا؟ فالله - عز وجل - قد أعطى ومنح قبل أن توجد هذه الأسباب، وقبل أن توجد هذه المتعلقات التي تتعلق بها كثير من القلوب، فينبغي أن تعاد الأمور إلى نصابها، وأن تربط القلوب بمعبودها، وأن نوجد هذه الثقة ونحييها في النفوس، فيكون الركون إليه دون ما سواه.

ثالثاً: الرضا.

فهو من ثمرات المعرفة بالله، فمن عرف الله بعدله، وحلمه، وحكمته، ولطفه، أثمر ذلك في قلبه الرضا بحكم الله وقدره في شرعه وكونه، فلا يعترض على أمره ونهيه، ولا على قضائه وقدره، ما تقول المرأة: لماذا لنا نصف الميراث؟ لماذا القوامة للرجل؟ إذا كانت تعلم أن الله عليم، حكيم، عدل، أن الله - عز وجل - متصف بالعدل، وأنه لا يظلم الناس شيئاً، فإنها ترضى بحكمه الشرعي.

وإذا أصاب العبدَ مكروهٌ فإنه لا يقول: لماذا يا رب؟ أنا ماذا عملت يا رب؟ من الناس من يقول هذا، نسأل الله العافية.

لو تذكرت لأخرجت لكم رسالة يذكر صاحبها كلاماً في غاية السوء، يقول في محصلة هذه الرسالة الطويلة: دعوته، ثم دعوته، ثم دعوته، ثم دعوته فلم يستجب لي.

يقول عن نفسه: صار كالحمار المبعد، ويذكر كلاماً في غاية القبح عن الله - عز وجل -، وأظن أن هذا مبتلى؛ لأنه إن لم تخني الذاكرة فإنه أرسل رسائل متعددة قبلها يطلب الدعاء.

فأقول: هؤلاء ما عرفوا الله - عز وجل - معرفة صحيحة، لو عرفوه، وأنه حكم عدل، عليم حكيم، لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، فإن من عرف ذلك رضي بأحكامه الشرعية، وبأحكامه القدريّة، فالله ساق له ذلك ليرفعه، ويختبر صبره، ويستخرج عبوديته، فمن الناس من تصدر منه مثل هذه الأقوال والفعال القبيحة إذا ابتلاه ربه، وهو الذي أعطاه هذه الأبعاد والعافية، فإذا سلب شيئاً يسيراً منها حصل هذا التبرم والتسخط، نسأل الله العافية.

وكثير من الناس يظن أنه على مستوى من التحقق بهذه المعاني، فإذا وقع له المكروه تلاشى وانكشف، فنسأل الله - عز وجل - أن لا يفضحنا، وقد كان من سؤال النبي - صلى الله عليه وسلم - : ((أسألك الرضا بعد القضاء))^(٢٠).

فالعبد المؤمن الذي عرف الله بأسمائه وصفاته يرضى؛ لأنه يعلم أن تدبير الله خير من تدبيره لنفسه، وأنه - تعالى - أعلم بمصلحته من نفسه، وأرحم به من نفسه، وأبر به من نفسه، ولذا تراه يرضى ويسلم، بل إنه يرى أن

(١٩) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٥).

(٢٠) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب المساجد (٨١/٢)، رقم: (١٢٢٩)، وأحمد (٥٢٠/٣٥)، رقم: (٢١٦٦٦).

هذه الأحكام القدرية والكونية، أو الشرعية إنما هي رحمة وحكمة، وحينئذ لا تراه يعترض على شيء منها، بل لسان حاله: "رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- نبياً" وهذا هو محض الإيمان. رابعاً: اليقين والسكينة والطمأنينة.

فاليقين هو: الوقوف على ما قام بالحق من أسمائه وصفاته، ونعوت كماله وتوحيده.

وباليقين مع الصبر تتال الإمامة في الدين: **{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}** [السجدة: ٢٤].

يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: "فاليقين روح أعمال القلوب، التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية"^(٢١).

ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب، وشك، وسخط، وغم، وامتلاً محبة الله - عز وجل- وخوفاً منه ورضاً به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه، كما قال بعضهم: اليقين ملاك القلب، وبه كمال الإيمان، وباليقين عرف الله^(٢٢).

فإذا تيقن القلب نزلت السكينة -وهي الطمأنينة والسكون الذي ينزل في القلب عند اشتداد المخاوف والبلاء-، فيزداد ذلك القلب إيماناً وثباتاً، ويكسو الجوارح خشوعاً ووقاراً، ويضفي على اللسان حكمة وصواباً، لماذا تنتشع هذه المعاني والأعمال القلبية عنا في أوقات الأزمات؟

لأنها لم تصل إلى مرتبة اليقين، نحفظ معلومات، ونسمع في الخطب والمحاضرات أشياء عن الله -عز وجل- أنه هو الحافظ، هو الغني، هو الرزاق، هو الكريم، لكن لم يصل ذلك إلى حد اليقين في النفوس.

فإذا جاء الخوف صار الإنسان يتلفت يمنة ويسرة، ويتطلع إلى المخلوقين، عله يجد طبه في أيديهم، أو خلاصه عندهم، فيصرف عبوديته إليهم، يتوسل بهم ويتضرع إليهم، وتصدر منه أمور لا تليق نحو المخلوقين، ولربما يرى الإنسان من هذا أشياء عجيبة من ألوان الضراعة التي لا تصلح إلا لله -عز وجل- تصرف لمخلوق، هل هذا يفعله إنسان عرف ربه -تبارك وتعالى- معرفة لائقة؟!.

كثير من الناس يظن أنه واثق بالله -عز وجل- متوكل عليه، ولو أنه فقد وظيفته فإنه لربما يذهب كل معنى من معاني التوكل في نفسه، ويكون فقره بين عينيه، نسأل الله العافية.

أين الرزاق؟ أين الإيمان بهذه الأسماء؟ هو يعرف الله أنه الرزاق، لكنه لم يصل إلى مرتبة اليقين بهذا، إذا مرض تعلق بالطبيب والدواء، ولربما يظن أنه لو مات هذا الطبيب لمات معه، الطبيب يموت، والمريض يبقى، والله حي لا يموت، أين الأطباء في القرون السابقة؟ أين هم؟ ذهب المرضى والأطباء، لكن الإنسان ينسى هذه المعاني إذا جاءت الشدائد.

وكثير منا لا يعرف نفسه إلا وقت الشدة إن كان له بصر صحيح، وإلا فمن الناس حتى وقت الشدة يغفل عن

(٢١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣٧٤/٢).

(٢٢) المصدر السابق (٣٧٦/٢).

نفسه، ولا يلاحظ قلبه وإلى أين يتجه، كثير من الناس لا يلاحظ حتى في وقت الشدة، لما تنقشع عنه هذه الأوهام التي يظن بسببها أنه على ثقة بربه، وأنه يقف على أرض صلبة من العبودية، والتربية الصحيحة، وما أشبه ذلك، فإذا زالت عنه هذه الأمور، وتبين ضعفه وظهر لكل أحد، لربما هو لم يتفطن لهذا، نسأل الله العافية. ومن الناس من يعرف؛ لأنه يلاحظ قلبه ويدرك عجزه، والخلل الذي مُني به فسبب له مثل هذه التصرفات والآثار السيئة.

ولذلك أقول: يمكن أن يجرب هذا حتى في الأمور الحسية، فكثير من الناس يظن أن عنده قوة، وأنه يستطيع أن يمتنع من أشياء كثيرة، ولكن إذا جاء الجد ربما يعرف أنه أضعف ما يكون، ومن الناس من يظن لربما أنه يستطيع أن يواجه الأعداء، وأن يقاتل، وأن يقتل الأبطال، وأن يفعل، ولربما لو أنه خلع ضرساً، أو جرح جراحة بسيطة لأصابه من الارتعاش والاضطراب، ولم تحمله ركبته، ما يستطيع أن يمشي خطوات، هذا موجود، ولربما أغمي عليه، وتحول لونه إلى لون الصفرة والشحوب كلون العصفور، أو الكركم من شدة الخوف.

ربما يظن الإنسان أنه لا يخاف إلا من الله - عز وجل - فإذا قدر له أن يمشي في مكان خالٍ، أو نحو ذلك، فقفتز عليه دويبة، لربما اضطرب غاية الاضطراب، أين القوة؟ وأين الشجاعة؟

لا تظهر، هو لا يعرف نفسه، لكن قد تتكشف له هذه في بعض المواقف، وكثير من الناس لا يوفق أيضاً إلى معرفة نفسه، ولا يزال يكابر ويغفل، وأنه يمتلك من القدرات والصفات والكمالات الشيء الكثير، والموفق من وفقه الله - عز وجل -

ومن الجيد أن الإنسان يلاحظ نفسه قبل وقوع المكروه، فيعرف درجة التوكل، يعرف الرضا عنده إلى أي حد، ولذلك كثير من الناس إذا وقعت لهم المصيبة لربما حصل منهم تصرفات غير لائقة، إذا مات لهم أحد، بعد مدة يفيق، ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، لكن أثناء المصيبة تذكره، تقول له: هذا أوان الصبر، وهو في حال لا يكاد يسمع، حتى إن بعضهم لربما طلب بعد أيام، قال: ماذا قلت ذلك اليوم؟ وقال سفيان الثوري: لم يفقه عندنا من لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة (٢٣).

بعض الناس يكون طالب علم يبتلى ببليّة، ولربما ينكسر، ويحصل له من الانهيار واليأس، ونوبات بكاء ربما لا يُخبر عنها الناس، لكن يخبر الطبيب، أو أقرب الناس إليه من يطلب منهم أن يعينوه على معالجة هذه القضية والمشكلة، نوبات شديدة من البكاء، لماذا؟ أين الرضا؟ هذا أوان الرضا.

تبكي بهذه الطريقة مثل الطفل، لماذا؟ وهل هذا البكاء سيرد لك ما فقدته، لاسيما الذين يبتلون - عافانا الله وإياكم - بالحريق، فهؤلاء إذا نظر الواحد منهم إلى وجهه في المرأة بعد الحريق في كثير من الأحيان، إن لم يكن على درجة عالية من الرضا عن الله - عز وجل - فإنه تصيبه حالات من الانهيار، وحالات من الاكتئاب، وحالات من المشاعر السيئة والبكاء الذي ينتابه حيناً بعد حين.

خامساً: الخشية.

(٢٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٩٤/١).

كلما زادت المعرفة بالله - عز وجل - ازدادت هيئته، وخشيته في القلوب، **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}** [فاطر: ٢٨].

ليس العلماء بالصناعات والحرف، وإنما العلماء بالله - عز وجل -، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: **((فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية))** (٢٤).

وقد فسر ابن عابس - رضي الله عنه - الآية، قال: "إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي، وعزتي وسلطاني" (٢٥).

ويقول ابن كثير - رحمه الله -: "إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العظيم، الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر" (٢٦).

وكيف لا يخشع القلب، ويهاب إذا امتلأ بالحب والتعظيم والمعرفة بالخالق العظيم، فإن من عرف الله صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وكان خوفه من الله وحده لا شريك له. **سادساً: الذل والتعظيم.**

فمن تحقق بمعاني الأسماء والصفات شهد قلبه عظمة الله تعالى، فأفاض على قلبه الذل والانكسار بين يدي الله - جل جلاله -، والعبودية لا يمكن أن تحصل وأن تتم إلا بكمال الذل والتعظيم.

فالتعبد هو التذلل، والطريق المعبد هو الطريق المذل، كما نعرف في معنى العبودية، فأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً وافتقاراً وخضوعاً، بحيث يحصل للقلب انكسار خاص لا يشبهه شيء، وحينئذ يستكثر العبد القليل من الخير على نفسه، كأنه لا يستحقه، يفرح بعباء الله - عز وجل - ويستكثر قليل معاصيه لعظمة الله تعالى في قلبه، وهذا هو سجود القلب.

وقد سئل بعضهم أيسجد القلب؟ قال: نعم، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء (٢٧).

ومن سجد هذه السجدة سجدت معه جميع جوارحه، وعن الوجه للحي القيوم، ووضع خده على عتبة العبودية، وإذا تأمل العبد وشهد بقلبه الرب - تبارك وتعالى - مستوياً على عرشه، متكلاً بأمره ونهيه، بصيراً بحركات العالم علويه وسفليه، وأشخاصه وذواته، سميعاً لأصواتهم، رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم، وأمر الممالك تحت تدبيره نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفاً بصفات الكمال، منعوتاً بنعوت الجلال، منزهاً عن العيوب والنقائص والمثال، وهو كما وصف نفسه في كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه، حي لا يموت، قيوم لا ينام، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بصير يرى دبيب النملة

(٢٤) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٢٦/٨)، رقم: (٦١٠١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب

علمه - صلى الله عليه وسلم - بالله تعالى وشدة خشيته (١٨٢٩/٤)، رقم: (٢٣٥٦)

(٢٥) تفسير البغوي (٤١٩/٦).

(٢٦) تفسير ابن كثير (٥٤٤/٦).

(٢٧) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٢٨/١).

السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، سميع يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات^(٢٨).

فإذا تأمل العبد ذلك فإنه يدعو لا محالة إلى تعظيم الله -جل جلاله-، فلا يستصغر في حقه معصية قط، مهما صغرت، ولا يستعظم في حقه طاعة قط مهما عظمت.

وقد ذكر القرافي -رحمه الله- في سر تحريم العجب، قال: لأنه سوء أدب مع الله -عز وجل^(٢٩). وذلك أن العبد لا ينبغي له أن يستعظم ما يتقرب به إلى سيده، بل يستصغره بالنسبة إلى عظمة الله -تبارك وتعالى-؛ ولهذا قال الله تعالى: **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}** [الأنعام: ٩١]، أي: ما عظموه حق تعظيمه. فالذي يصيبه العجب هو يتعاضم بما يبذل، وما يقدم، إذا صلى صلاة، أو صام يوماً، أو نحو ذلك، أصابه التعاضم، والزهو، والغرور، والعجب، يستكثر ما يبذله في التبعده لله -جل جلاله-، فمثل هذا ما يليق. الذل هو أن لا يستكثر تبعده بالنظر إلى عظمة الله -عز وجل- وكماله، وسعة أفضاله، فإذا حصل عند العبد مثل هذا العجب، فإن ذلك يدل على أنه قد حصل له خلل عظيم في هذا الباب.

والمقصود: أن العبد متى عرف ربه بجلاله وعظمته وعزته فإن ذلك يثمر له الخضوع، والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: "وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته"^(٣٠).

سابعاً: الرجاء.

وذلك بمعرفة العبد بغنى الله -جل جلاله- وكرمه، وجوده، وبره، وإحسانه، ورحمته، فهذا يوجد عنده سعة الرجاء، ويثمر له ذلك أنواعاً من العبوديات الظاهرة والباطنة، بحسب معرفته وعلمه.

الإنسان إذا احتاج إلى مخلوق، وعرف أن هذا المخلوق كريم، واسع العطاء، غني، إلى غير ذلك من الأوصاف التي يحصل بها البذل، فإن رجاءه يكون أوسع، فإذا ذهب إلى مخلوق يعلم أنه لا يملك شيئاً فأين الرجاء؟

إذا ذهب إلى مخلوق يعلم أنه لا يعطي شيئاً أصلاً، فإنه لا يرجوه، لا يحصل عنده الرجاء، فلا بد من معرفة بالله -عز وجل- صحيحة، أن الله هو الغني، الكريم، الجواد، المحسن، البر، الرؤوف، الرحيم، فيقبل العبد على الله -عز وجل- ويوجد عنده الرجاء.

ثامناً: المراقبة والحياء.

وذلك إذا علم العبد أن الله سميع، بصير، عليم، شهيد، محيط، خبير، لطيف، حفيظ.

(٢٨) المصدر السابق (١/١٤٤).

(٢٩) الفروق للقرافي (٤/٢٢٧).

(٣٠) الفوائد لابن القيم (ص: ٧٠).

كل هذه الأسماء التي يعلم بها العبد أن الله لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، فهذا يثمر له مراقبة الله - عز وجل - فيحفظ لسانه، فلا يفتاب الناس، ويحفظ عينه، فلا ينظر، بعضهم يقول: أتوب مراراً من النظر، ثم أعود، أحدهم يقول: لي سنة كاملة أجدد التوبة في النظر، ولم أفلح، لماذا؟

إذا وجدت المراقبة، إذا عرف أن نظر الله إليه أسبق من نظره إلى هذا الشيء، فإنه يخاف، الإنسان قد لا ينظر إلى النساء، أو إلى الحرام إذا كان بحضرة المخلوقين، ولو أدنى المخلوقين، من الذي يجترئ وينظر إلى النساء هكذا مكاشفة وبحضرة الناس ينظرون إليه؟

يستحي منهم، ولربما يخاف، فإذا كان يتأدب مع المخلوقين هذا التأدب، فكيف بالله - عز وجل - والملائكة ينظرون إليه، ويكتبون ذلك، **{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}**؟ [غافر: ١٩].

فتحفظ هذه الجوارح، ويحفظ القلب من أن يوجد فيه شيء لا يحبه الله - عز وجل - من الالتفات والركون إلى غيره، أو التعلق بشيء من هذا الحطام والشهوات، أو امرأة تتعلق بمثلها، أو تتعلق برجل، أو رجل يتعلق بامرأة أو نحو ذلك، هذه الأوهام كلها تنقشع، إذا علم أن الله يطلع على ما في قلبه، ويرى أفعاله، ويسمع أقواله، فلا يتكلم إلا بما يليق، وإذا سمع الناس يفتابون نهاهم، قال: سبحوا، كفوا عن هذا، هذا لا يجديكم شيئاً؛ لأنه يستشعر أن الله ينظر إليهم، ويسمع كلامهم، وما هو موقفه، وماذا يقول لهم.

فهذه المراقبة نحن أحوج ما نكون إليها في هذه الأيام، التي أصبحت فيها الرقابة - مهما كانت هذه الرقابة، سواء كانت رقابة الدولة، أو رقابة الأسرة، أو رقابة الوالدين، أو رقابة المدرسة، أو غير ذلك - ما يمكن أن تحول بين الإنسان وبين ما يريد أن يصل إليه من معصية الله - عز وجل -، الآن يمكن عن طريق جهازه، وهو في وسط بيته يستطيع أن يشاهد أشياء كثيرة لا يحبها الله، ولا يرضاها، والناس لا يشعرون به، وأقرب الناس إليه لا يعلمون عن حاله شيئاً، أصبح عن طريق هاتفه الجوال، وبالوسائل التي تعرفونها يمكن أن يحصل كثيراً من مطالبه.

فهذا يحتاج إلى أن نغرس رقابة الله - عز وجل - في قلوبنا جميعاً.

فإذا تهيأت أسباب المعصية وتوافرت تذكر الإنسان أن الله يراه، فخاف واستحي، فيكف عن فعل ما لا يليق.

تاسعاً: المحبة.

فمعرفة الأسماء والصفات هي طريق المحبة، الإنسان لماذا يحب غيره؟ لماذا يحب مخلوقاً؟

لو سألنا أحداً - كلنا يوجد في قلبه محبة لمخلوقين - لماذا تحب فلاناً؟ قال: أحبه لما عنده من الكرم، أو الشجاعة، والجود، والإحسان، أو العلم، أو كمال الرأي، وحسن النظر في الأمور، أو اللطف، أو أحبه لغناه، أو لإحسانه إليّ، أو لجمال وجهه، أو غير ذلك من الأمور، فهو تعلق بالكمالات فيما يتوهمه الإنسان.

الإنسان لا يحب النقائص، ولا يحب من استجمع النقائص، يعني: لو قيل لامرأة تتعلق برجل أو بشاب: لماذا تحبينه هل هو مثلاً يتصف بجمال الوجه؟ فإذا قالت: لا، هل يتصف بالغنى؟ قالت: لا، بالعلم؟، لا، بحسن الرأي والنظر في الأمور؟، لا، بالنسب والحسب والشرف؟، لا، بحسن هيئته وشكله؟، لا.

إذاً لماذا تحببته؟ لا يوجد مبرر لهذه المحبة، أليس كذلك؟ فكل من أحب غيره فلا بد أن تكون هذه المحبة لكامل يتوهمه في هذا المحبوب.

فإذا عرف العبد صفات الكمال والأسماء الحسنى، وأن كل صفات الكمال المطلق الله متصف بها، فالله جميل لا يدانيه شيء في الحسن والجمال، والله -تبارك وتعالى- غني، وكريم، وقوي، ومحسن، وبر، ولطيف، ورعوف، ورحيم، أرحم بنا من الوالدة بولدها، إلى غير ذلك من أوصاف الكمالات، فإن القلب ولا بد تأسره هذه الأوصاف أسراً، فينجذب إلى هذا المحبوب، إلى هذا المعبود، إلى هذا الموصوف بهذه الصفات الكاملة، فيحبه محبة لا تدانيها محبة، أليس كذلك؟

لكن لماذا تتلشى هذه المحبة في قلوبنا؟ لأن معرفته معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته غير متحققة على الوجه اللائق، قد يعرف الإنسان معرفة سطحية، لكنه لا يستشعر هذا بقلبه، فهي معرفة لا تلامس القلب، وإذا كانت المعرفة لا تلامس القلب فإن الإنسان لا ينتفع بها، ولهذا قيل: "العلم الخشية"^(٣١).

فمجرد حفظ المعلومات وحده لا يكفي، إنما هو وسيلة إلى العمل بموجبها ومقتضاها، وهذا العمل بموجبها ومقتضاها ما يتأتى لكل أحد، كثير من الناس يحفظ أشياء كثيرة جداً لكنه أبعد ما يكون عن الله -عز وجل- ولهذا يقول العز بن عبد السلام -رحمه الله-: "أحب عباد الله تعالى إليه، وأكرمهم عليه: العارفون بما يستحقه مولاهم من أوصاف الجلال، ونعوت الكمال، فهم في رياض معرفته حاضرون، وإلى كمال صفاته ناظرون، إن نظروا إلى جلاله هابوه، وإن نظروا إلى جماله أحبوه، وإن نظروا إلى شدة نعمته خافوه، وإن نظروا إلى سعة رحمته رجوه"^(٣٢).

ولما ذكر ابن القيم -رحمه الله- مشهدي الحكمة والأسماء والصفات، ذكر أن هذين المشهدين يطرحان العبد على باب المحبة، ويفتحان له من المعارف والعلوم أموراً لا يُعبر عنها^(٣٣).

فمن عرف الله أحبه، ومن أحب الله أحبه الله، وهذا هو الفوز الأكبر، والغنم الأعظم، والنعيم.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: "المحبة هي المنزلة التي تنافس فيها المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروّح العابدون، وهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرّة العيون، وهي الحياة التي من حُرّمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عُدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال، والتي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه"^(٣٤).

ومحبة الله -عز وجل- فطرة فطر الله القلوب عليها، فالقلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى، وهذه الفطرة التي

(٣١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/١٣١).

(٣٢) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال (١٠).

(٣٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/٢٨٦).

(٣٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/٨-٩).

فطر الله عليها عباده.

يقول شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-: "قاله تعالى فطر عباده على محبته وعبادته وحده، فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً لله محباً له عابداً له وحده"^(٣٥).

ومن لاحظ الأسماء والصفات كان حب الله -عز وجل- أعظم شيء لديه، إذا نظر الإنسان إلى الإحسان والإنعام والكمالات، والجمال، وما إلى ذلك، لم يتخلف قلبه عن محبة الله، وإنما يكون هذا التخلف كما قال ابن القيم "لأردأ القلوب وأخبثها، وأشدّها نقصاً، وأبعدها من كل خير"^(٣٦)، ويكون ذلك للقلوب البطالة.

كلُّ محبوبٍ سوى الله سرفٌ * * * وهمومٌ وعمومٌ وأسفٌ

كلُّ محبوبٍ فمنه خلفٌ * * * ما خلا الرحمنَ ما منه خلفٌ

فليس للقلوب سرور، ولا لذة تامة إلا في محبة الله، والتقرب إليه بما يحبه، ولا تُمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة لا إله إلا الله، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله^(٣٧).

والمقصود أن القلوب مفطورة على محبة المحسن الكامل، فإله -عز وجل- له الكمال المطلق، نحتاج أن نعرف هذه الحقيقة معرفة تلامس القلوب، فيثمر ذلك بإذن الله -عز وجل- محبته والتعلق به.

والإنسان إذا شهد صفات الكمال عموماً وعرفها أوجب له ذلك ألوان العبوديات، وأقبل على الله -عز وجل- إقبالا صحيحاً، وصار ينشط للعبادة، ولا يستكثر شيئاً يبذله في سبيل الله -عز وجل-، وسخر سمعه، وبصره، وماله، وجوارحه، ووقته في البذل والسعي في مرضاة الله -جل جلاله.

نسأل الله -عز وجل- أن يبارك لنا فيما نسمع، وأن يجعل ذلك حجة لنا لا حجة علينا، وأن يجعله سبيلاً لصلاح قلوبنا وأعمالنا وأحوالنا، وأن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يلطف بنا ويرحمنا، وأن لا يشغلنا عن ذكره بذكر من سواه.

وعلى كل حال كان قد بقيت خاتمة يسيرة في هذا الموضوع، فيما يتعلق بمراتب التعبد بأسماء الله وصفاته، ولكن الوقت لم يسعف إليها.

ومن أحسن من تكلم على هذه القضية فيما وقفت عليه وقرأته: الشيخ وليد الودعان في بحث اسمه: "التعبد بالأسماء والصفات لمحات علمية إيمانية"، هو نقل كما نقل غيره، تكلم على هذه القضية كثيرون، نقلوا كلاماً لشيخ الإسلام، ولابن القيم ولغيرهما، لكن هذه الكتابة مختصرة، وأبعد ما تكون عن التكلف، ومرتبته، وهو أفضل ما قرأته في هذا الجانب.

حتى إنني لما قرأتها، وكانت لربما آخر ما قرأته في هذا الجانب لم أجد بدءاً من كتابة شكر إليه لهذه الكتابة الجيدة الرصينة، التي لا تجد فيها تكلفاً ألبتة، وإلا فالكتابات كثيرة جداً، منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو في

(٣٥) مجموع الفتاوى (١٠/١٣٥).

(٣٦) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣١٨).

(٣٧) مجموع الفتاوى (٢٨/٣٢).

الإنترنت، وهي متفاوتة غاية التفاوت، لكن هذا من أفضل ما وقفت عليه في هذا الجانب، وهي مثال جيد للكتابات الحسنة التي تتسم بالاختصار والجودة والتأصيل، والبعد عن التكلف، وهذا من أهم الأشياء -من الناس من تقرأ صفحة واحدة له، وترى التكلف ظاهراً، فيصرفك ذلك عن بقية الكتاب-، حتى إنني تمنيت أنه كتب في كل الأسماء الحسنى بهذه الطريقة.

أسأل الله -عز وجل- التوفيق والقبول للجميع، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه